

فتنة التكفير

(نظرة على فتوى تكفير العلامة شبلي النعماني والإمام القزويني رحمهما الله)

- السيد أبوالأعلى المودودي¹

- ترجمة من الأردوية: أبو سعد الأعظمي²

آلف الله بين قلوب المؤمنين وجعل فيها الأخوة والمحبة برابطة الإيمان والإسلام وعدّها من أكبر النعم التي أنعمها عليهم بعد هدايتهم إلى الإيمان، حيث جاء في القرآن الكريم: "وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا" (سورة آل عمران: 111) إن رابطة الإيمان والإسلام هي التي سماها الله تعالى في هذه الآية بحبل الله، حيث ربط بها الناس الذين توجد فيما بينهم أسباب كثيرة للعداوة مع اختلاف أحسابهم وألوانهم ولغاتهم وأوطانهم، فجعلهم الله تعالى قومًا واحدًا. ويختصر فوزهم وفلاحهم بل بقاؤهم على أن يحافظوا على هذه الألفة والمحبة والتعاون فيما بينهم ويعضدوها. إن رابطة الدم هي يلاقي أشخاص قوم آخرين ووحدة اللغة واللون والمواطنة تجعلهم قومًا واحدًا، ولكن في الإسلام توجد رابطة دينية فحسب دون غيرها. وما تكاد تنكسر هذه الرابطة حتى ينتشر جميع الناس كانتشار حبات التسبيح حينما ينكسر خيطه، ولذلك حث الإسلام على صيانة هذه الرابطة الدينية، وجعل من هجم عليها مجرمًا كبيرًا. قال الله تعالى في القرآن المجيد: "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا" (سورة النساء: 94).

¹ مؤسس الجماعة الإسلامية وكاتب إسلامي كبير

² باحث، مؤسسة علوم القرآن، علي كره، الهند

وقال النبي ﷺ في رواية ذكرها الإمام البخاري: "أبما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما".¹

وقال في موضع آخر: "لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك".²

وجاء في حديث رواه الإمام مسلم: "من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه".³

وفي رواية آخر: "من لعن مؤمناً فهو كقتله ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقتله".⁴

تقتضي هذه الأحكام أن نحذر في تكفير أي مؤمن كحذرنا في إفتاء قتل رجل، بل هو أشد منه. وذلك لما أن من أصدر فتوى لقتل رجل، لا خوف عليه أن يدخل في الكفر، ولكن في تكفير أي مؤمن من الممكن أن لا يكون هذا الرجل كافراً ويوجد في قلبه ولو ذرة من الإيمان، أن تعود تهمة الكفر على القائل. فالرجل الذي يخشى الله ويشعر بخطورة التراجع إلى الكفر، لا يجراً أبداً أن يكفر مسلماً حتى يتضح أمامه بعد البحث والتأني بتراجعه إلى الكفر. ومن شدة الحذر في هذا الباب أن رجلاً يظهر من عمله نفاق واضح، وحاله يدل على أنه ليس مسلماً صادقاً، لو يقر الإيمان بالله بلسانه، فلا يجوز أن يقال له كافر وأن يتعامل معه كالتعامل مع الكفار. ومرة قال رجل في سرية بعد أن رأى المسلمين "السلام عليكم، لا إله إلا الله محمد رسول الله" فقتله رجلاً ظناً أنه

¹ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهم كما قال، رقم الحديث 6104

² صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم الحديث 6045

³ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، رقم الحديث 112

⁴ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم الحديث 6047

أشهد بكلمة الله لينجو نفسه. وكان يوجد سبب مناسب لظن هذا رؤية لظاهرة، لأنه كان في موقع الحرب، والسيوف قد سلّت، وليس من البعيد أن لا يكون إيمان في داخل قلب هذا الرجل وإنما أراد أن يجعل هذه الكلمة درعاً لنفسه. ولكن النبي ﷺ حينما علم عن هذه الحادثة، غضب غضباً شديداً وسأله عن هذا بشدة. فقال يا رسول الله إنما أقر بهذه الكلمة لينجو نفسه من سيوفنا، فقال رسول الله ﷺ "هلا شققت عن قلبه" أي ليس من مسؤولياتكم أن تجسوسوا على القلوب. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى. وإنما ترون ظاهراً، فإذا أظهر رجل إسلامه، فلا يجوز لكم أن تجعلوه كافراً بالتأويلات وأن تتعاملوا معه كتعاملكم مع الكفار.

وإنما ورد هذا التأكيد الشديد لتكريم الرابطة الدينية والوعد العنيف على قطعها، لأن رجلاً يكفر مسلماً، هو في الواقع يقطع حبل الله الذي يؤلف به الله بين قلوبهم ويجعلهم قوماً واحداً. ولو يقطع حبل الله المتين على أمور تافهة هكذا، لتنتشر الأمة، وتذهب علاقات الألفة والمحبة والتعاون والمواساة فيما بينهم على أدراج الرياح. ثم يصل هذا القوم مرة أخرى إلى شفا حفرة من النار، أنقذهم الله منها.

ولذلك لزم العلماء المتقون الحذر الشديد في تكفير أهل القبلة. إنهم ردوا بكل جرأة على الذين ظنوا آراءهم وعقائدهم ضالة حسب تحقيقاتهم، وأبطلوا أقوالهم وأفعالهم إن وجدوها خلافاً للقرآن والسنة حسب ظنهم، وأظهروا بكل صراحة عن مقالاتهم التي رأوا فيها انعكاس الكفر والإلحاد وعن أعمالهم التي أحسوا فيها علامات الكفر والشرك، أن هذه كلها تؤدي إلى الكفر والشرك والإلحاد. ولكن سواء تجرأوا بكل شدة في تسمية الكفر والشرك والإلحاد كفراً وشركاً

والحاداً إلا أنهم لم يتجروا على أن يسموا مرتكبي هذه الأعمال والأفعال كافرين أو مشركين.¹ وإنما كانوا يقشعرون من هذه الفكرة أن يجعلوا رجلاً كافراً أو مشركاً وهو في الواقع من المؤمنين. فلذلك كانوا يردون على آراء من يقرون بكلمة الله، وهم يرون فيها انعكاس الكفر والشرك والإلحاد ولا يكتفون بتفهمهما فحسب بل يحاولون أن يصونوا المسلمين من آرائهم. ولكن عندما يواجهون سؤالاً لتسميتهم كافراً أو مشركاً، فيحاولون أن يبقوهم في إطار الإسلام، ويؤولون في أقوالهم أبعد تأويلات، ويتأنون في أمورهم ويلتمسون العذر لهم مع حسن ظنهم عنهم. ولا يصدر عن الفتوى على خروجهم من الدين وحرهم من الإيمان حتى يباح منهم كفر صريح، حيث لا مجال فيه للتأويل.

وعرض للإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى قضية رجل كان يقول لا يدخل أي كافر في جهنم. فأفتى تلامذة الإمام أبي حنيفة أنه أصبح كافراً لما أنه يكذب القرآن ولكن الإمام أبا حنيفة قال: لا تسرعوا في تكفيره، هل لا يمكن تأويل قوله؟ فأعجب تلامذته كيف يمكن تأويل هذا القول الصريح؟ فقال الإمام أبو حنيفة: يمكن تأويله. لعله يظن أن الإنسان عندما ينظر الحقيقة بعينه يوم الحشر فلا يبقى كافراً بل يصبح مؤمناً. وهذا شيء آخر أن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفع لأنه ليس إيمان بالغيب بل هو إيمان بالشهادة ولكن لا يمكن الإنكار بأن يؤمن بالوهمية الله تعالى قبل أن يدخل في جهنم. ومن هذه الناحية أن الرجل

¹ - وللاحظ هناك أن كون الرجل كافراً أو مشركاً أو ملحداً شيء ووجود الكفر والشرك أو الإلحاد في أقوالهم وأعمالهم شيء آخر. إذا أنكر الإنسان أصلاً من أصول الدين كلياً فيمكننا أن نسميه كافراً وكذلك نسميه ملحداً إذا أنكر الإيمان بالله تعالى ونسميه مشركاً إذا جعل مع الله إلهاً آخر بكل صراحة. ولكن من الممكن أن يكون معظم أعماله وعقائده طبقاً للإسلام ولكن يلزم الكفر أو الشرك من جزئيات قوله أو فعله، فهذا هو الشيء الذي عبر عنه الكفر دون كفر، ولا يجوز على أساسه أن نسميه كافراً.

الذي يقول: لا يدخل في جهنم أي كافر، لعله لا يعني به أن من كفر في هذه الدنيا هو لا يدخل في جهنم بل يريد منه الكفر على الإطلاق، أي لا يدخل أحد في جهنم في حالة الكفر، وذلك حق، فكيف تقولون كافرين من يزعم هذا؟ وكان هذا مذهباً لسلفنا الصالحين، وهذا لا ينحصر على أساس التقوى والخشية من الله تعالى بل يقتضيه العقل والتدبر أيضاً. ومن الواضح أن رجلاً يدعي بكونه مسلماً، ويؤمن بالله ورسوله وكتابه الذي أنزل على النبي ﷺ، لا يظن عنه في بادي النظر أنه يقول عمداً وبارادة الكفر قولاً يخالف عقيدة التوحيد والرسالة ويعارض القرآن الكريم. ولو يخرج مثل هذا القول من لسان الكافر أو قلبه، لنحمل على ما أراده ظاهراً، لأنه لا يرجى منه إلا الكفر. ولكن لو يقول أحد من المسلمين مثل ذلك القول، لنحذر التسرع بالفصل، ونحمل قوله على ظاهره، وذلك لأن المسلم لا يرجى منه أن يتفوه بكلمة الكفر من لسانه أو قلبه. ومن الممكن أن قوله يعارض القرآن الكريم ولكن نيته لا تخالفه أو قال هذا ولا يدري أنه يعارض القرآن الكريم وله سياق لا يخالف القرآن البتة. فكيف يجوز لنا هذا أن رجلاً يقر بإيمانه بالقرآن، نجعله منكراً له على أساس التعارض الظاهر فحسب. وإن لم تستطع تأويله، فلنسأله أو أتباعه عن المراد الحقيقي لقوله. ولو يقدم في جوابه تأويلاً لا يعارض القرآن الكريم صراحة فليسلمه وليجتنب من إثباته خلافاً للقرآن. والذي يقر نفسه بكون القرآن كتاب الله ويؤمن به فلا يجعل له كافراً بالتأويل.

صرح الله تعالى في القرآن الكريم الأمور التي تفرق بين الإيمان والكفر، فالرجل الذي يؤمن بألوهية الله تعالى وصفاته المذكورة في القرآن، والذي يؤمن بملائكته وكتبه ورسوله ويقر برسالة النبي ﷺ وبالقرآن منزلاً من الله واليوم الآخر بالطريقة التي جاء ذكرها في القرآن فهو مؤمن في كل حال، ولو يختلف مسلكه من مسالك الجمهور كل اختلاف في علم الفقه وعلم الكلام. ولو تكون آرائه خاطئة في الفروع

أو في تفصيلات النصوص حتى تصل إلى حد الضلالة أيضاً في قضية أو في بعض القضايا، فنستطيع الرد عليه ولكن لا نكفره على أساس ذلك فحسب أن تأويله يختلف من تأويلات أخرى وكذلك لا يستنتج الكفر والإلحاد والزندقة من ترتيب مباحثه في أسلوب منطقي. فمثلاً رجل لا يقول بكون العالم حادثاً، ويقول عن المادة أنها قديمة، فلا يجوز أن يسمّى كافر على أساس ذلك. وذلك لأننا لا نجد هذا البحث صريحاً فيما آتانا الله ورسوله، بل اخترعت هذه المصطلحات فيما بعد وعينت لها مفهوماً خاصاً. ويستنبط من استدلال منطقي لتسليمه الكون قديماً، أنه يلزم إنكار الله. ولكن ليس من الضروري أن يؤمن بهذا المصطلح ومفهومه الخاص الذي وضع له، وكذلك ليس من الضروري أن يلزم عنده أيضاً ما يلزم عند الناس من تسليم الكون قديماً، وهو يريد به ذلك. فلذلك يسأل هذا الرجل الذي يقول مثل ذلك، أيؤمن بأن الله خلق العالم والمادة، وإن آمن به، فليسلم أنه مؤمن، ولا يعني بالقديم ما يعنيه الناس، ولا يلزم من هذا القول عنده ما يلزم عند الناس. ومن الممكن أن يكون مصطلحه خاطئاً، ومن الممكن أن يكون تعارض واضح بين كون الله مبدعاً للعالم، وكون العالم قديماً من حيث المنطق. وهذا الرجل الذي يجمع بين هذين المتعارضين، يسمّيه المنطق فاطر العقل. ولكن لا يجوز أن يسمّى كافراً أو محروماً من الدين والإيمان من رؤية دينية. وذلك لما أن الله لا يكلفه أن يؤمن بكون العالم حادثاً، بل كلفه أن يؤمن بألوهيته وخلقه العالم، وإذا آمن به، فلا يجوز أن يكلفه الإيمان بالمسائل الكلامية.

وليقدر عليها قضايا أخرى وهذا المحل لا يسع أن نخوض في تفاصيل كل هذا، وإنما نريد أن نوضح القاعدة الكلية وهو أنه لا يجوز لنا أن نكفر أيّ رجل على أساس تأويله واستنتاجه المنطقي. وليس أيّ ظلم أكبر من هذا أن نفترض صغرى وكبرى بعد أن نستمع أيّ فقرة من لسان مسلم ثم نقوم له حد الأوسط فيستنتج

منه نتيجة تقول إنها تؤدي إلى الكفر فهو كافر. وهذا هو العمل الجائر الذي نهى النبي ﷺ عنه بالشدة. والصحابي الذي قتل رجلاً في الحرب بعد أن أظهر إسلامه هو أيضاً فعل ذلك حيث حاول أن يعلم ما في داخل قلبه من الاستدلال المنطقي، ثم استنتج منه أنه كذب في إقراره كلمة الله، ولكن النبي ﷺ زجره وقال هلا شققت عن قلبه. ويحتمل إقراره بالإيمان على معنيين في كل حال، أن يصبح مسلماً في الحقيقة أو أراد أن يخدع، وسيتحقق فيما بعد أن أي احتمال من هذين هو صحيح. ولكن هل توجد أي وسيلة، تحكم في ضوءها بالجزم واليقين أن الاحتمال الثاني هو الصحيح، حتى يكفر رجل كان يقر بالإيمان. فمن الناس من كانوا يفهمون هذا التعليم للنبي ﷺ ويخشون من عذاب الله، لا يبحثون عن الدلائل لتكفير أي مسلم أبداً، بل يفكرون كيف يمكنهم أن يدخل الكفار في الإسلام.

ولكن مما يؤسف أن المتأخرين قد تساهلوا في هذا الأمر، وأصدروا فتاوى الكفر والإلحاد والزندقة في أمور تافهة. فلا يكاد يخرج من لسان مسلم أو قلبه أي شيء يخالف مسالكهم، حتى بدأوا في فحص الجزئيات بعد تصفح أوراق شرح المقاصد وشرح الفقه الأكبر والنبراس والفرق بين الفرق وشرح الشفاء، والجزئية التي يتعرض لها هذا الرجل، يصدر الإفتاء على إلحاده وكفره وزندقته طبقاً لهذه الجزئية. فأصبح كافراً، ومن لا يسلمه كافراً فهو أيضاً كافر، دماؤهم وأموالهم أصبحت مباحاً ووقع الطلاق على أزواجهم وانقطعت رابطة الألفة والأخوة من جميع المسلمين وحتى من الذين لا يسلمونهم كافرين أيضاً. وقد عمّت هذه الفتنة للتكفير في القرون الماضية بهذا القدر أن من المحال أن أحداً من أعلام هذه الأمة أنقذ من هذه الفتنة ولم تكفره فرقة من الفرق. وكان من نتيجة ذلك أن قلوب المسلمين أصبحت شتى وكان قبل ذلك شأن الكفار والمنافقين كما جاء في الآية "تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى". وأصبح المسلمون بمثابتهم بسبب هذا التكفير وانتشرت

جميعتهم وقضت على الألفة والمحبة والأخوة والمواساة التي أنعمها الله عليهم بالإيمان ثم وصلوا مرة أخرى إلى شفا حفرة من النار التي أخرجهم الله منها.

وفي هذه الأيام نرى أن علماء المسلمين كما يبذلون عنايتهم في تكفير المسلمين، لا يلتفتون إلى أن يدخل الكفار في الإسلام. ويظهر أمامنا أن المسلمين العاملين الذين يؤمنون بمبادئ الدين وتشهد أقوالهم وأفعالهم على أنهم يؤمنون بما جاء به النبي ﷺ ويحبونه حباً جماً ويتبعون دينه وينصحون للإسلام والمسلمين، إلا أنهم أخطأوا باختلافهم من العلماء في أمور فرعية، فيصدر العقاب عليهم هكذا أن تخرج المقتبسات العديدة من كتاباتهم من هنا وهناك، ثم تشرحها بعد ترتيبها طبقاً لتأويل القول بما لا يرضى قائله، بل ربما كان الكاتب قد رد عليها في كتاباته الأخرى ويعترف أنه لا يعني بها ذلك أبداً ولكنهم يقولون نحن شققنا عن قلبه وهذا هو الذي يريده منها، ولو يؤلف كل ما قدّمه فينتج منها تلك النتيجة التي أخرجناها وكانوا يقولون أنه يقول هذا فلذلك هو كافر وزنديق وملحد، ومن لا يعتبره كافراً فهو أيضاً كافر ومن يعينه في أمور اجتماعية فهو يرتكب الفعل الحرام.

وهذا هو المنهج لهؤلاء العلماء الأفاضل الذين كانوا مصداقاً لقول النبي ﷺ "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل". فإنهم قد توارثوا ميراث النبي ﷺ ولكن منهج تصرفهم فيه يختلف عن منهج النبي ﷺ. فكان النبي ﷺ قد جمع هذا الإرث بعد أن تحمل شتم الناس وأذاهم حتى تشرفوا بالإسلام. ولكنهم يضيعون هذا الإرث حيث إنهم يخرجون من كان منهم بطعن ألسنهم وأقلامهم. وكان النبي ﷺ لم يزل يفكر طول النهار والليل في البحث عن ذلك الرجل الذي كان في قلبه ولو ذرة من الإيمان ثم يعانقهم ولكنهم يبحثون عن ظلمات الكفر دون نور الإيمان. فالرجل الذي تشهد حياته كلها بالإيمان وتشهد أقواله وأعماله بالإيمان، ولكنهم لا ينظرون إليها. ولو استفتاه عنهم أحد من الظالمين بعد أن التقط وقدم فقرات مختلفة من كتاباتهم، فهم بدون أي بحث

وتأمل، يخرجونهم من الملة الإسلامية ولا يكتفون بذلك بل يخرج أتباعهم وأعوانهم أيضاً الذين قد تمسكوا بحبل الله المتين. ويبدو كأن إصدار فتاوى التكفير لآلاف المسلمين ليس شيئاً مهماً يحتاج إلى التأمل والتأني والحذر الشديد، وليس من الضروري أن يقضي ساعات في البحث عن أحوال وعقائد هؤلاء. وما واجه هذا واحد أو اثنين بل واجه مثل هذه الفتاوى عديد من أعلام الإسلام. إنهم كفروا مولانا إسماعيل الشاه وآلافاً من المسلمين معه، وكذلك عثروا على كلمات الكفر في كتابات مولانا قاسم النانوتوي، وأخرجوا السير سيد ومحسن الملك والحالي والذين معهم من الملة الإسلامية، وقاموا بتكفير مولانا عبد الحي الفرنغي محلي ومولانا أشرف علي التهانوي ومولانا محمود الحسن والله أعلم بالصواب من كان مثلهم من الأعلام من تعرضوا لفتاواهم. فقد أدوا الصلوة طول حياتهم وآتوا الزكاة وصاموا رمضان والتزموا الفرائض الدينية بكل اهتمام وما اكتفوا بصيانة الدين ونقله إلينا فحسب بل ضحوا بأنفسهم في نشره ومواجهة أعدائه. ولكن لا يلتفت انتباه المفتين إلى كل ذلك، وإن لاحظوا أي شيء منها فهي كلمات متبعثرة وفقرات مختلفة، يمكنهم صياغها في قالب الكفر بعد أن يحرفوا فيها، وذلك لما أنهم يستحقون التكفير ولا يطلب منهم الإيمان. وقد أزعج قلوب المفتين من كثرة الأشخاص في الملة الإسلامية، فإنهم يريدون أن يفرقوا هذه الكثرة لكي يروا كثرة عدد الكفار. ولذلك كما كان النبي ﷺ يفكر أن يتشرف الكفار بالإسلام، هم يفكرون أن يخرجوا المسلمين من الإسلام. وقد ذهب هذا الزمان عندما يسر الناس بعد أن رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجا، والآن يسرون بعد رؤيتهم يخرجون من دين الله أفواجا.

كنت أريد أن أكتب شيئاً عن هذا الفتوى الجديد الذي أصدر مؤخراً في صدد تكفير العلامة شبلي والإمام الفراهي رحمهما الله. ولكن حزني واكتئاب قلبي جعل ينتشر ويمتد على هذه الصفحات. وفي الواقع لا أجد كلمات مناسبة للتعبير عن هذا

الألم الذي أحس به قلبي بعد رؤية هذا الفتوى أن العالمين الكبيرين اللذين أفنيا حياتهما في خدمة الإسلام، قد ألصق عليهما تهمة الكفر والإلحاد والزندقة بعد أن توفيا قبل سنوات عديدة. وأحد منهما من أفنى حياته في خدمة تاريخ الإسلام وأرسى عظمة الإسلام الماضية في قلوب آلاف من المسلمين وغير المسلمين أيضاً، وأصلح عقائدهم ودرأ عنهم مفاسدها والذي أنعم على الأمة الإسلامية بمؤلفاته من أمثال "الفاروق" و"المأمون" و"سيرة النبي". وكان في قلبه ألم للإسلام ما أزعجه وأقلقه عند حرب طرابلس وبلقان حتى جعل يتشوق آلاف من المسلمين أيضاً إليها وحدث في قلوبهم غيرة إيمانية بعد قراءة أشعاره وخطبه. والثاني منهما من أمضى أربعين سنة في خدمة القرآن الكريم وأفنى حياته في تحري المعارف القرآنية وتأثر بتفسيره مئات من العرب والعجم وأنشأ فيهم ذوق التدبر في القرآن الكريم. ويشهد كل كلمة من كتاباته أنه كان عاشقاً للقرآن ويفدي بنفسه على كل لفظ منه. فإن لم يبق مثل هؤلاء مسلمين، فأين نبحث عن المسلمين على وجه الأرض.

وأخبار هذين الشيخين لم تكن غير معروفة عند أهل العلم، وآلاف من الصفحات التي كتبها كانت أمام الناس. وكانوا يستطيعون أن يعلموا بعد إلقاء النظر عليها، هل كان في قلبهما إيمان أم لا؟ وهذا الزمان ليس هكذا أن يضطر أحد إلى إظهار الإسلام بالنفاق، وهب لو يجد الفرصة إليه اليوم، فليس من أعمال المنافقين أن يبرزوا ميزات الإسلام والمسلمين بعد اختطافها من الصفحات الماضية للتاريخ أو يبذلوا قصارى جهده في ترغيبهم إلى القرآن الكريم بعد إيضاح حقائقه ومعارفه. وكان كل هذا دليلاً أظهر من الشمس على إيمان العلامة شبلي والفراحي. ولكن لم ينظر المفتون إلى أي شيء منها. وقد قدمت أمامهم بعض المقتبسات لشبلي والفراحي كما فعلوا من قبل بمولانا محمد قاسم ومحمد أشرف علي التهانوي. وأصدروا بدون تأمل بعد إلقاء النظر عليها أن كل هذا يؤدي إلى الكفر. ولم يكتف بذلك

بل أضاف أن قائلها كافر وملحد وزنديق ومنكر لله ورسوله ومنكر للقرآن والسنة بدون شك. وهؤلاء يستحقون العقاب كعقوبة كعب بن أشرف اليهودي. وزادوا فيه أن من لا يعتبرونهما كافرين ولا يظهرهم برائتهم عنهما، هم أيضاً كافرون، والذين يساعدون مهمتهما بأموالهم أو يشترون رسائلهما أو يرسلون أولادهم في مدرستهما للتعليم هم أيضاً يرتكبون الحرام. وأسأل الآن ما فائدة هذا الفتوى؟ وأظن أنه ليس أكثر أن تحدث منه العداوة بين علماء ديوبند وعلماء دارالعلوم التابعة لندوة العلماء ويعم بين المسلمين سوء الظن عن الندوة ودار المصنفين ومدرسة الإصلاح. وما يقوم تلامذة شبلي من أعمال مفيدة تتعرض بالخسارة والضرر ويتخلف المسلمون عن تعاون هؤلاء الذين يخدمون الإسلام والمسلمين مواجهين الآلام والمصائب من كل نوع في هذه الأوضاع الراهنة الشديدة. وما أحسن عملاً وأكثر ثواباً هذا ما يقوم به خدام الشريعة الإسلامية.

وآلني أشد إيلام رؤية هذا أن أعلام الهند الذين يرجى من فضلهم وتقواهم أن يحسوا مسؤولياتهم قبل إصدار هذه الأمر الخطير، هم تورطوا فيه. ويشك من هذا التساهل الذي قام به مولانا أشرف علي التهانوي ومولانا شبير أحمد العثماني والقاري محمد طيب مدير دارالعلوم ديوبند (رحمهم الله جميعاً وطاب مثواهم) في تكفير العلامة شبلي والإمام الفراهي أن تكفير مسلم أصبح أكثر سهلاً من قتل النملة. ويجدر بهم أن يتصفحوا صفحات ستة عشر كتاباً على الأقل لتكفير رجلين قد توفيا قبل سنوات وتنقل منها العبارات المشتملة على عشر صفحات تقريباً ولكن تساهلوا فيه وما تحملوا هذه المشقة أن يطلعوا على مقاصدهما ونياتهما من سياق وخلفية العبارة بعد قراءة كتاباتهما الأصلية. والذين لا يؤمنون بيوم القيامة هم أيضاً لا يصدر عن أي حكم على قول أو فعل رجل فقط بل ينظرون إلى سلوكهم العام حتى في قضية جنائية تافهة ويطلعون على طريقتهما الماضية ويلاحظون تلك

الظروف التي ارتكبوا فيها أي عمل، وإذا كان أي كتابة جديرة بالتحقيق فيبحثون معناه ومراده بعد إلقاء النظر عليها. ولا يكون مثل هذا حتى في قضايا تافهة لإزالة السمّة أو إهانة المحاكمة أو الثورة أن يختار بعض الفقرات مفرقة من الكتابات الأصلية ثم يصدر الحكم على أساسها. ولكن هذا شأن علماء الإسلام أنهم يجلسون لإصدار العقوبة النهائية للشريعة الإسلامية وفتاوى عقوبة إعدام الدين والإيمان لمسلمين شهيرين ويصدرون على أساس فقرات عديدة فحسب، وإن كنا نعرفان بمخدراتهما القرآنية والإسلامية وتوجد وسائل عديدة للاطلاع على أخبارهما، ويمكن بها معرفة أحوالهما الدينية والإيمانية وحتى تيسر لهم الحصول على ذلك الكتاب وتلك الرسالة أيضاً، أخذ منها هذه الفقرات. وهل هذا عمل الذين يؤمنون بأنهم سيحضرون أمام الله يوم القيامة ثم يسألون عما فعلوها في الدنيا.

وفقرات العلامة شبلي التي أصدر على أساسها فتوى تكفيره مأخوذة من كتابه "الكلام". وإنه كتب هذا الكتاب كله رداً على الملاحدة والماديين ويريد به إثبات وجود ذات الله تعالى وصفاته ونبوة النبي ﷺ وإثبات مكافاة الآخرة. ورأى أن الشكوك والشبهات التي طرأت على أذهان الناس من الفلسفة الجديدة والعلم الجديد، لا تكفي دلائل علم الكلام القديمة بإزالتها ولذلك من المناسب أن يرتب علم الكلام في أسلوب جديد وإتماماً لهذه الغاية ألف "الكلام" وإن لم تتفق بجميع ما جمع في هذا الكتاب ولكن يخلو الكتاب كله من وجود أي شيء يشك فيه الإلحاد، بل يتضح من قراءته أن مؤلفه مؤمن صادق، يريد بتأليفه صيانة إيمان المسلمين.

عنوان الباب الأول لهذا الكتاب هو "العلوم الجديدة والدين" ويبتدئ هذا بهذه الفقرات التالية:

"نارت ضجة في العالم أن العلوم الجديدة قد هزت أركان الدين، ولم يزل يرفع مثل هذه الفتايات في المعركة بين الدين والفلسفة ومن هذه الجهة ليس هذا بشيء

جديد. ولكن اليوم يزعم أن الفلسفة القديمة كانت مبنية على التخمينات والظنون فلذلك لم تستطع على قضاء الدين. والفلسفة الجديدة على عكسها تبني على المشاهدات والتجربة فلذلك لا يستطيع الدين أن يواجهها في أي صورة. وهذا صوت عام يضح في العالم بعد أن رفع من أوروبا، ولكن لننظر أن كم من مغالطة شملت في هذه الواقعية". (الكلام، ص 7)

وبعد ذلك أثبت المؤلف أن كل ما هو قطعي ويقيني في العلوم الجديدة لا يخالف الدين من أي جهة، والأشياء التي تعارض الدين فهي ليست بقطعية بل هي ظنون وتخمينات فلسفية. ولا يتجرأ أهل أوروبا بنفسها أن يزعموها يقينية. وأكثر ما يقال ضد الدين من جهة العلم الجديد أن الأشياء التي يدعو إلى إيمانها الدين، لا يمكننا أن نقول عنها أي شيء نفيًا وإثباتًا في ضوء التجربة والمشاهدة، لأنها وراء الحس والمشاهدة. ولكن لا يتجرأ أحد عالم طبيعي بعد تجاوز اعتراف "عدم علم" أن يدعي أن الله ليس بموجود أو الملائكة ليست لهم أي وجود أو لا حقيقة للوحي أو الحشر. وأضاف العلامة في صدد هذا البحث قائلاً: "هذه هي آراء خبراء الفن، ولكن بعض الماديين أقل درجة منهم يتجاوزون من حدودهم ويدعون بنفي كل هذا، وكانت مفترياتهم أدهشت عقول شباب بلدتنا" (الكلام، 8). هل هذه الآراء الملحد أو لزنديق؟

وأثبت المؤلف في الأبواب التالية أن الدين تغلغل في أحشاء الناس ومزج في فطرتهم، ودين الإسلام هو دين فطري، وليس فيه أي شيء خلافاً للعقل، وعقل الإنسان هو نفسه يقتضي قبول الإسلام. ثم ألقى الضوء على ذات الله تعالى وأثبت فيه أن المنهج الذي اختاره الفلاسفة والمتكلمون في إثبات ذات الله تعالى، هو ليس محكماً وقابلاً للوثوق. وأحسن القرآن الاستدلال عليه حتى تأثر به دون الدلائل المنطقية كبار الفلاسفة في العصر الحديث أيضاً الذين يقولون بوجود ذات الله تعالى.

ثم نقل المؤلف اعتراضات الملاحدة قديماً وحديثاً وردّ عليها، واتهم بالعلامة أنه ملحد بعد نقل بعض المقتبسات من هذا البحث. وهذه المقتبسات هي في الواقع اعتراضات الملاحدة، نقلها العلامة للرد عليها وكتب على عنوان هذا الباب "اعتراضات الملاحدة أي من ينكرون الله" وبعد ذلك عنوان فرعي "لماذا ينكر الماديون الله". وكل ما نقل من اعتراضاتهم تحت هذا الباب، جعلوها عقيدة له وهذا ظلم بل اقترأ صريح عليه. وباختيار هذا المنهج يمكن أن يثبت كل فلاسفة الإسلام خارجين من الدين، لأن كلاً منهم نقل أقوال المعادين للإسلام، والإمام الرازي ربما ينقل دلائل المخالفين بأسلوب، لعله لا يمكنهم تقديمها بهذه الشدة والقوة، فهل علماء الإسلام يصدرن الفتاوى ضده أيضاً؟

وجميع هذه المقتبسات التي نقلت بداية من ثلاث وأربعين (43) إلى تسع وأربعين (49) صفحة، اقترى فيه مثل ذلك، حيث قدم أقوال الملاحدة انتساباً إلى المؤلف، أو الأقوال التي رد عليها بعد أن قبلها على سبيل الاقتراض للاستدلال، جعلوها عقيدة أصلية للعلامة. وقد ذاع هذا المنهج بين المتكلمين أنهم ربما ردوا على أقوال المخاصمين بعد أن قبلوها على سبيل المعارضة ويمكن نقل نماذج كثيرة مثل ذلك من كلامهم.

ويرى المؤلف أن استدلال الفلاسفة بتغير العالم إلى حدوثه وبحدوثه إلى وجود ذات الله تعالى ليس استدلالاً قوياً. ولا تثبت هذه الدلائل أمام الاعتراضات القوية للملاحدة. وأحسن استدلال على وجود ذات الله تعالى هو ما اختاره القرآن الكريم، أي في البداية يثير الشهادة الوجدانية للإنسان ثم يلفت انتباههم إلى نظم العالم وترتيبه المنطقي ويثبت من هذا وجود ذات الله تعالى وألوهيته أيضاً. وفي اتباع هذا الاستدلال استند من يؤمنون بالله تعالى إلى ترتيب ونظم آثار الفطرة في العصر الراهن بعد أن تركوا الدلائل الفلسفية والمنطقية كلها.

ومظاهر الفطرة التي استدل بها على وجود ذات الله تعالى، عجز الملاحدة والماديون عن ردها. وخفض كبار العلماء والفلاسفة للعصر الحديث رؤوسهم أمام هذا الاستدلال، وورد بحثه التفصيلي في "الكلام" في موضعين. وكان عنوان البحث الأول "منهج استدلال القرآن الكريم على وجود ذات الله تعالى" (ص 25-29) وعنوان البحث الثاني "الرد على اعتراضات الملاحدة" (ص 54-62). فن المناسب أن ننظر إلى هذه المباحث ثم نسأل أنفسنا هل هو يقول بقدوم المادة، هل يعتقد أن الله تعالى ليس بخالق العالم، هل يقول إن لوازم الأنواع يحدث بنفسها بدون التزام، وليس أي دخل لله تعالى في خلق العالم. كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

والتهمة التي ألصقها بالعلامة في صدد النبوة أنه كان يرى النبوة شيئاً كسبياً وأنه كان يعتقد أن الإنسان يصل إلى درجة النبوة بتقدمه في القوى الخلقية تدريجياً. وهذا كذب مفترى لا يتجرأ عليه أحد من الكذابين. وفي الواقع كل ما كتب المؤلف في بحث النبوة إنما هو مأخوذ من "المطالب العالية" للإمام الرازي و"حجة الله البالغة" للشاه ولي الله الدهلوي و"معارج القدس" للإمام الغزالي و"الملل والنحل" لابن حزم. ويبيدي العلامة رأيه بعد نقل عبارات هؤلاء الأعلام هكذا: "إن الله أعطى الإنسان قوة روحانية، تسمى قوة قدسية أو ملكة النبوة وتربط هذه القوة بتزكية النفس وتطهير الأخلاق، كما أعطاهم قوات مختلفة أخرى، تفقد في بعض الأشخاص تماماً وتوجد في بعضهم بالتفاوت. والذي توجد فيه هذه القوة يكون كاملاً في الأخلاق ويجعل الناس كاملاً بتأثيره فيهم ولا يتلمذ مثل هذا الرجل على أحد لحصول التعليم والتربية بل ينكشف أمامه حقائق الأشياء بدون تعليم وتعلم.

ولا يستطيع أحد إنكار هذه الحقيقة من النبوة، وعندما يرى بالبداية أن رجلاً خالياً من العلم والثقافة (كهومرس وامرئ القيس) ولكن بالرغم من ذلك يكون شاعراً فصيحاً أو خطيباً مصقاعاً أو مبدعاً إلى هذا الحد أن يندر مثيله في العالم. فهل هذا من المستحيل أن يعطي الله تعالى بعض الأشخاص قوة قدسية من هذا النوع بأن تنكشف أمامه حقائق الأخلاق وأسراره بدون تعليم أو تعلم. ومن ينكر هذه الحقيقة أن معظم الأنبياء من أمثال إبراهيم وعيسى عليهما السلام ومحمد ﷺ لم يتلذذوا على أحد ولم يحصلوا على العلوم والفنون مطلقاً. وبالرغم من ذلك أحدثوا ثورة عظيمة وغيروا أحوال العالم بتأثير الهداية والتلقين، وأوضح مبادئ فلسفة الأخلاق ومسائله ما لم يبلغ إليها خاطر أرسطو وأفلاطون وغيرهما ولا يمكنهم أن يصلوا إلى هذا الحد". (ص 102-103)

ثم يعنون "نبوة محمد ﷺ" ويكتب فيما يلي:

"وكما تقدم ذكره أن حقيقة النبوة مركبة من أجزاء تالية. هو كامل نفسه ويمكنه أن يكلل آخرًا، وعلومه ومعارفه لا تكون كسببية بل وهبية من الله تعالى. وكل هذا بكامله كما يوجد في ذات النبي ﷺ يندر نظيره من بداية خلق العالم إلى يومنا هذا". (ص 40)

ثم يضيف قائلاً:

"والآن نقدم بالتفصيل أن الأصول والمبادئ التي لقنها النبي ﷺ بالوحي حول العقائد والعبادات والأخلاق والاجتماع هي كاملة وأرفع درجة بهذا القدر أنها لا يخطر ببال أحد من الفلاسفة والمحامين ولا يمكن أن يخطر ببال أحد بدون وحي إلهي". (ص 134)

فلتقرأ كل هذه المقتبسات بإمعان النظر وبالغ الدقة ثم تعد قراءتها، ثم فكروا هل

يرى النبوة كسبية من يخرج من قلبه مثل هذه الكلمات الرائعة.
وألصق به التهمة بعد تقديم مقتبساته حول المعجزات أنه يظن صدور المعجزات محالاً كلياً، ويزعم أن الله عاجز عن الإتيان بالمعجزات وهذا كذب مفترى.
وإنما رد العلامة شبلي على هذا الاعتقاد للأشاعرة أن المعجزة تكون دليلاً على النبوة. وكل هذه الدلائل التي نقلها في صدد ذلك هي مأخوذة من "مطالب عالية" للإمام الرازي. وإنه كان يريد الإثبات أن المعجزة لو يكتفي بجعلها دليلاً ووسيلة لإثبات النبوة، فيكون من الصعب أن تثبت نبوة أي نبي ﷺ. وأما السؤال بأن العلامة نفسه يقبل المعجزات أم لا نفحص عشرة صفحة لكاتبه "الكلام" خير دليل على هذا. فهو لا ينكر أن قد جاء في القرآن الكريم ذكر المعجزات ويقول بكل صراحة إن تأويل هذه المعجزات المذكورة في القرآن الكريم تأويل يثبتها واقعات عادية لا يجوز في أي صورة. ويرى أن إنكار المعجزات هو ظلم. (ص 115) ثم يرد على دلائل المنكرين بعد نقلها بالتفصيل ويثبت إمكان بل وقوع الحوادث غير العادية في ضوء تجارب العصر الحديث (ص 116-126) وينهي بحثه قائلاً:

"وبما أن القرآن الكريم قطعي الثبوت، فلذلك لا ننكر كل ما جاء فيه من ذكر المعجزات، ولكن قبل ذلك لا بد من تعيين هذا الأمر بكل إمعان النظر أن الألفاظ القرآنية هي في الواقع قطعي الدلالة أم لا في إثبات هذه المعجزات. والمفسرون الباحثون من أمثال قفال وأبي مسلم الخراساني وأبي بكر أدهم وغيرهم يرون أنه لم يذكر في القرآن الكريم إلا من المعجزات. وما ذكرها القرآن الكريم من المعجزات، فمن ينكر صحتها؟" (ص 129-130)

فهل يقال عن هذا الرجل الذي يرى مثل ذلك أنه ينكر المعجزات؟

وكذلك اتهمه بإنكار حقيقة الجنة وجهم، بعد تقديم مقتبساته المنتشرة حول مكافأة الآخرة، ونقلت هذه العبارة من كتابه "الكلام" من صفحة مائة وتسع وثلاثين (139)، ولكن العبارة التي نقلها العلامة متصلاً منها من كتاب الإمام الغزالي رحمه الله عليه "المضنون به على غير أهله" قد تركه بدون تأمل، لأنهم كانوا يريدون تكفير العلامة شبلي فقط، ولا حرج إن يتعرض الغزالي أيضاً لذلك الفتوى نتيجة من ذلك. وهذا هو حال جرأتهم وهذا هو حال أمانتهم.

وإنما بدأ العلامة بحث مكافأة العمل في كتابه "الكلام" لإزالة اعتراضات الملاحدة التي أوردوها حول مكافأة العمل وحول الجنة وجهم. يقولون إنكم قد فرضتم أن لله عواطف كعواطف الإنسان، فيغضب من العصيان وينتقم ويسر من الإطاعة ويمنح الجوائز. ويقول العلامة في الرد على هذا إن حقيقة مكافأة العمل ليست هكذا، بل نتيجة فطرية للطاعة هي الثواب ونتيجة فطرية للعصيان هو العقاب، ثم ينقل في تأييده آيات قرآنية وينقل في تفسيرها ما قاله الإمام الغزالي في تفسيرها في جواهر القرآن. ويمتد هذا البحث في كتابه "الكلام" من 139 إلى 143. إقرأ كل هذا بدقة تامة ثم احكم عليه، هل هذه هي آراء ملحد أو زنديق أو لمسلم ومؤمن بالله ورسوله وكتابه.

وقد اطلعت على العقائد الحقيقية لزنديق والآن ألق النظر على ورقة الاتهام لزنديق آخر. ومقتبس الإمام الفراهي التي أصدر الفتوى على أساسه، إنما هي مأخوذة من مذكراته التي لم يتيسر له إتمامها. إنه قد بدأ ترجمة معاني القرآن الكريم. والأفكار التي خطر بباله خلال هذا العمل، كتبها على حدة. وقد عثر تلميذه أمين أحسن الإصلاحي على هذا البياض بعد وفاته فنشره في مجلة "الإصلاح" الصادرة من مدرسة الإصلاح. وفي بداية هذا المقال علق أمين أحسن الإصلاحي عليه قائلاً:

"وبما أن المؤلف لم يتيسر له إتمام هذا، فلذلك تركت العبارة من هنا وهناك ويوجد في بعض المواضع إبهام شديد، فليلاحظوه بكل دقة".

وبعد العلم أن هذه ليست مقالة مرتبة بل مجموعة من إشارات غير مرتبة، امحت فيها العبارات في بعض المواضع ويوجد فيها إبهام شديد أيضاً، نقل العبارات منها ثم الاستدلال بها على عقائد رجل ما ليس إلا ظلم صريح. وآراء الإمام الفراهي حول القرآن الكريم تنتشر في مقالاته وكتبه المختلفة، نطلع في ضوءها على آرائه حول القرآن ونظمه وترتيبه وإعجازه. لكنهم لا ينظرون إلى شيء منها، بل يعتمدون على هذه المقتبسات المنتشرة ثم يصدرون الفتاوى على أساسها أن الفراهي يطعن في الله ورسوله وكتابه الذي أنزل عليه، فلذلك أصبح كافراً وزنديقاً وشاتم الرسول ويستحق ذلك العقاب الذي استحق به كعب بن أشرف اليهودي. هل التقوى عبارة عن هذا؟ هل هذا شأن المتقين؟

لو يخرج أيّ مسلم من لسانه جملة، تكون فيه شائبة الكفر، فكان منهج أعلام هذه الأمة أنهم كانوا يفكرون فيها، أيحمل هذا على معنى صحيح أم لا. ولو يعلم أن من الممكن حمله على معنى صحيح، ليفهم بسبب حسن ظنهم أن القائل ما أراد إلا هذا وليس كفراً. وللنظر الآن أن الإمام الفراهي كل ما كتب يمكن حمله على معنى صحيح، وشروح تلامذته وكتابات السابقة أيضاً تلقي الضوء على المعنى المراد منها. وهذا أيضاً ثابت أنه ليس فقط يؤمن بالقرآن بل يعشق كل حرفه. فما هو السبب في أن تصدر الفتوى بعد رؤية مقتبسات مبهمة بأنه كان يريد بها الطعن في ذات الله تعالى ونبيه وكتابه. هل جاء في "شرح المقاصد" و"شرح الفقه الأكبر" و"شرح الشفاء" في أيّ موضع أن نلح على تكفير المسلمين في كل حال. وإن كان أيّ قوله ذا معنيين، فلا يراد به إلا ذلك المعنى الذي يثبت كفره.

ولا نريد بهذا البحث كله أن نطعن في العلماء الكرام، نحن نكرمهم كل تكريم،

ولكن قد علمنا بعد البحث والتحقيق أنهم قد ركبوا خطأ فاحشاً في إصدار فتوى التكفير وجاءوا إثماً عظيماً ولم يلزموا الحذر مما يقتضي مثل هذا الأمر. ولا نريد أن يحضروا أمام ربهم وقد حملوا وزر هذا على كواهلهم ثم يخزوا أمام ربهم، فلذلك نريد أن نوضح أخطائهم عليهم وندعو الله أن يوفقهم بالتوبة والرجوع منها ولا يلهيهم شأنهم الدنيوية المغترة عن اعتراف الذنوب. وكذلك ندعو الله أن يوفق هؤلاء الظالمين الذين حاولوا إصدار فتوى التكفير على رجلين قد توفيا قبل سنوات للحصول على أغراضهم الدنيوية فحسب وخدعوا العلماء العظام بتقديم مقتبساتهما بطريقة زائفة. أخلص الله نياتهم ووفقهم بكسب الحلال بالصدق والأمانة.¹

¹ مع الشكر لكاتب "دو عمدہ مضمون فتنة تكفير اور فتنة گیری" (بالأردوية)، ص 2-22